الفصل الثالث

العصور التاريخية في بلاد الشام

الاقوام العربية

تبدأ العصور التاريخية في بلاد الشام بدخول الاقوام العربية اليها منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ومن هذه الاقوام الاموريون والكنعانيون (الفينيقيون) والاراميون . يؤلف هؤلاء مجموعة عربية منحدرة من أصل واحد ومنطقةواحدة هي جزيرة العرب المهد الاول لهؤلاء القوم، كانوا يتكلمون لغة واحدةويؤلفون مجتمعاً واحداً ويسكنون في منطقة واحدة هي شبه جزيرة العرب التي كانت تحيطها المياه من ثلاث جهات ،فهجرها السكان بعد أن قصرت طاقاتها الانتاجية وكان طريقها الوحيد هو الطريق الشمالي إلى الارض العربية في كل من وادي الرافدين ووادي النيل وبلاد الشام ،فخرجت الموجة الاولى عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد واستقرت في العراق وبعد ألف سنة استقرت موجة ثانية هي موجة الاموريين واستقروا في العراق وكونوا أعظم امبراطورية عرفها التاريخ هي امبراطورية بابل الاولى والتي اشتهرت في زمن ملكها السادس المشرع الكبير حمورابي..

الا أن المهم هو أن هذه القبائل قبل استقرارها في المناطق العربية استوطنت بادىء الامر بلاد الشام ، .فقد عرفت سورية في المصادر البابلية القديمة وكذلك

(١) طه باقر ، المقدمة ، جـ٢ ، ص ٢٣٣

عرفت النصوص المكتشفة في اوغاريت (رأس شمرة) باسم شرايين .

في هذه المنطقة وإلى جوار البحر المتوسط بحر آمورو العظيم وإلى جانب جبال لبنان وتلال فلسطين التي هي امتداد طبيعي للصحراء العربية حيث تشد هذه المنطقة إلى الجزيرة العربية صلة دائمة لاتوجد بينهما عوارض طبيعية بل طرق تؤدي إلى أقاليم متجانسة وطبيعة أرض واحدة سواء في الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب . استهوت هذه الارض أبناءها العرب باعتبارها الارض السعيدة بفضل امطارها وانهارها وينابيعها وبحارها ..

لقد استقرت الجماعة العربية الاولى في بلاد الشام مكونة في دخولها عصوراً تاريخية برهنت هذه الجماعة في ضعفها عن أنها أكثر تصلباً من جيوش الغزاة المتعاقبين

الأقوام العربية في بلاد الشام

الآموريّون الكنعانيّون الآراميّون

١ـ الاموريون :

أموريو : الصيغة الاكدية للتسمية السومرية (مار–تو) بمعنى الغرب وهذا المصطلح ذو مدلول جغرافي عندهم يعني بلاد الشام بالنسبة لبلاد وادي الرافدين، كما اطلق هذا الاسم على الاله القومي للاموريين ثم استعمل البابليون كلمة امورو للتدليل على كل بلاد الشام حتى أنهم سموا البحر الابيض المتوسط ببحر امورّو العظيم .

لقد وردت اولى الاشارات التاريخية إلى أرض الاموريين في عصر سرجون « السلالة الاكدية » . وعلى كل فان الاموريين هم أكبر البطون العربية التي استوطنت اجزاء مختلفة من بلاد الشام وفي مدة قصيرة استطاعوا أن يؤسسوا سلالاتهم في سوريا والفرات الاوسط وفي العراق وفي آشور ،واعظم سلالة آمورية في العراق هي سلالة حمورابي « العهد البابلي القديم» ،ففي بلاد الشام كان الآموريون يلعبون الدور الرئيسي في الاحداث السياسية وخصوصاً عندما بدأوا يهددون بلاد وادي الرافدين في زمن الملك الاكدي «شار–كلي–شري » ثم كانت هجراتهم الضخمة ابان حكم (ابي‌سن) آخر ملوك سلالة اور الثالثة «آخر سلالة سومرية » بحيث ادت في النتيجة ان تقضي على هذه السلالة واقامت في بلاد وادي الرافدين دويلات أمورية مهمة . وبما أن بلاد الشام الداخلية كانت بوجه عام مراكز مهمة للدويلات الامورية بيد أن الموجات التي انحدرت إلى بلاد وادي الرافدين جاءت بالدرجة الاولى من البوادي الكائنة في غرب الفرات ، بادية الشام وبادية العراق، ومن أعالي الفرات وشمال مابين النهرين حيث سبقت

الاشارة في المصادر المسمارية التي خصت المرتفعات المسماة جبل (بسار)بانها موطن الاموريين الذين احتك بهم سكان وادي الرافدين ومنها نزحوا اليه حيث تذكر المصادر المسماوية المنطقة بالتحديد وهي مابين تدمر ودير الزور..

لقد تمركز الاموريون في الاقسام الشمالية من بلاد الشام ثم اخذوا ينتشرون في اواسط سورية وفي لبنان حتى امتدوا جنوباً إلى فلسطين وكونوا امارات مهمة في بلاد الشام مثل ماري (تل الحريري) وقطنة وحماة ودمشق وارواد والبطرون وجبيل وهداكو (حلب) .

وتذكر الرسائل المهمة التي زودتنا بها الحفريات(١)في مدينة ماري أن الاموريين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد كانوا يسيطرون على المنطقة الممتدة من البحر المتوسط إلى بلاد عيلام . .

يستدل من هذا أن الاموريين لم يقتصر نشاطهم على تأسيس دولة في منطقة الفرات الاوسط واجتياح سوويا وانما اسسوا في بلاد وادي الرافدين حكماً واسسوا عدة دويلات مهمة .

وعلى ذكر الكتابات التي زودتنا بها الحفريات الفرنسية في مدينة ماري (تل الحريري) قرب البوكمال، كان من أعظم ماكشفته اعمال التنقيب في العصور الحديثة فقد تضمنت أكثر من ٢٠,٠٠٠ الف لوح مسماري وهو عدد لم يخرجه أي موقع آخر باستثناء نينوى، وتمثل هذه الالواح المكتوبة بالخط المسماري البابلي القديم وباللهجة العربية الغربية مكتبة الملك العربي الاموري (زمرلم) آخر ملوك مدينة ماري التي كانت العاصمة الآمورية منذ الالف الثاني قبل الميلاد والتي ضمت اليها معظم البلاد السورية. لقد كشفت هذه الحفريات عن الاشياء المهمة في هذه المدينة في عهدها الاموري كالقصر الملكي الواسع الذي يشغل مساحة تقدر بستة فدادين وجدت فيه أكثر من (٣٠٠) غرفة زينت جدران الكثير منها بصور متقنة الصنع للرجال والالهة هذا بالاضافة إلى الرسوم

(١) حفريات البعثة الفرنسية في مدينة ماري (قل الحريري) قرب البوكمال في اقليم سورية نشرها العالم الغربي أندري بارو .

الملونة بالالوان الزاهية والتي تمثل الملك الاموري زمرلم يتسلم من الالهة عشتار رموز السلطة. وهذا القصر ووثائقه شاهد على حضارة العرب الزاهرة في تلك الفترة السحيقة في القدم .

ان هذه الوثائق الخطيرة والتي تتضمن انواعاً(١)مهمة من الوثائق والسجلات الملكية الخاصة ومنها الوثائق والرسائل التجارية والادارية التي ترجع إلى الملك زمرلم: ١٧٣٠ — ١٧٠٠ قبل الميلاد، قد القت الضوء الكثير على جوانب مهمة في تاريخ بلاد الشام عامة والاموريين وتاريخ الشرق الادنى بصورة خاصة وكذلك اخبرتنا عن العلاقات الدولية بين سوريا واقطار الشرق القديم هذا إلى جانب نواح مهمة عن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الى جانب تعريفنا بمدن لعبت دورا مهماً في كافة نواحي الحياة العامة فقد ورد اسم مدينة «خلبو» «حلب» كعاصمة لمملكة امورية اسمها «يمخد» واسم ملكها« يريم — لم » وان مدينة جبلا « جبيل » كانت مركزا مهماً لصناعة الملابس ومدينة قطنا من المراكز الادارية المهمة وحران كانت امارة أمورية .

ويفهم من الالواح المارة الذكر ان الاموريين استعملوا عربة تجرها الخيول كما استعملوا النار في احوال الدفاع والاستخبارات إلى جانب الازدهار الاقتصادي الناتج عن التقدم الزراعي والصناعي والتجاري(٢)وخصوصا التجارة الدولية مع اقطار الشرق الادنى . كما يفهم ان الاموريين كانوا واسطة لتجارة مهمة بين اقطار البحر المتوسط « بحر آمورو » وبين بلاد وادي الرافدين هذا بالاضافة إلى نشر الثقافة العربية والتأثيرات الفنية .

ان الدويلات الامورية لعبت الدور الكبير على المسرح السياسي بعد منتصف الالف الثاني قبل الميلاد بعد ان استعادت نشاطها بعد افول نجم الامبراطورية البابلية القديمة وظلت إلى زمن تأسيس الامبراطورية المصرية حيث بدأت مصر توسعها لاجل بناء امبراطورية لاول مرة وجعلت قسما كبيراً من سوريا تحت

(1) Andre Parrot. Archeologi mesopotemienne P. 324 — 354.

(٢) موريس كروزير ، تاريخ الحضارات العام، ج١، ص ٢٥٨

سيطرتها هذا إلى جانب مراكز القوى في المنطقة المتمثلة بالآشوريين وظهورهم على المسرح السياسي وكذلك الحثيين ، وبين هذه المراكز القوية المتصارعة انحصرت الدويلات الامورية في سورية الوسطى .

وتشير الرسائل المعروفة برسائل تل العمارنة في مصر ان احد ملوك الامارات الامورية المدعو عبد عشرتا « اى عبد الاله » حاول ان يتدخل في هذا الصراع الدولي ويثبت اقدامه في المنطقة السورية ويحصل على بعض الاستقلال . هذا مالمسناه من الرسائل المتبادلة مع امنوفيس الثالث منتهزاً فرصة النزاع بين الدولة الحثية والدولة المصرية وكان عبد عشرتا يحكم في مملكة مقرها مدينة ارقة (شمال شرق طرا بلس) في اعالي نهر العاصي .ومن خلال تفحص فحوى الرسالة يتبين قدرة هذا الملك وحنكته السياسية في استغلال الظروف باظهار الولاء للفرعون مع تستره في تكوين قوة تقف ضد الزحف المصرى الحثي. وبالنتيجة فقد اكتسب لنفسه مناطق جديدة حيث انه استولى على المدن السورية الواحدة بعد الاخرى على طول الساحل .وفي الداخل احتل قطنة وحماة وغوطة دمشق واروا د والبترون وجبيل مما حدا باحد امراء الكنعانيين المتحالفين مع فرعون مصر « امنوفس الرا بع» اخناتون صاحب الدعوة الدينية الجديدة باخباره عن اعمال عبد عشرتا وتضرعه إلى الفرعون بارسال المساعدة ولكن رسائله كانت دون جدوى وفي الاخير تحرك امنوفس وارسل فصيلة من الجنود الا أنها لم تستطع استرجاع الممتلكات المصرية . ان الرسائل التي ارسلها الامير الكنعاني « رب – عدى» إلى فرعون مصر مبينا فيها الوضع(١) العام في المنطقة السورية تبين لنا قوة الامورين وسيطرتهم السياسية على بلاد الشام وخصوصا اذا عرفنا فيما بعد من رسائل تل العمارنة ان مصر قد خسرت كل ممتلكاتها في بلاد الشام ..

عندما توفي عبد عشرتا تابع ابنه المدعو عزيرو نفس الاسلوب بل ان هذا الملك كان اشد من ابيه حيث استطاع هو واخوته وحلفائه ان

(١) طه باقر ،المقدمة، ج ٢ ،ص ٢٣٩

يستولوا على مدن جديدة اخرى . وهذا وارد في رسالة الامير الكنعاني رب عدى عندما بعث برسالته المكتوبة بالخط المسمارى : «ان ملوك كنعان عندما كانوا يرون المصريين يهربون من امامهم ولكن ابناء عبد عشرتا الان يهزأون بشعب مصر ويهددوني باسلحة دموية . »

لقد سيطر الآموريون على كل سوريا وانتقلوا إلى الجنوب في فلسطين مكونين امارات عربية جديدة وصاروا اسياد المنطقة في بلاد الشام كلها

لقد خلف لنا هؤلاء العرب حضارة متميزة بمميزات خاصة تدل على عظمتهم وقدرتهم على الابداع والابتكار .

من خلال ماتركه لنا الاموريون من تراث ومن خلال النصوص الاثارية والمكتشفات المعاصرة في مناطق خارج حدود الاقليم الاموري نستطيع ان نكون صورة حقيقية عن اهم المنجزات الحضارية للاموريين ، فاللغة الامورية التي تكلموا بها هي احدى اللهجات العربية القديمة التي زودتنا بمعلومات وافية عنهم .

ومن خلال الآثار المكتشفة في بلاد الشام والعراق وبلاد وادي النيل نستطيع ان نتبين الصورة الممثلة للانسان العربي الاموري حيث الشكل العربي ذو الانف الاقنى والطول المعتدل والرأس المستدير والعيون الرمادية اللون واللحي السوداء والملابس المنسوجة نسجا دقيقاً ذات الالوان المتعددة يزينها السلاح المحمول ، كما وصفه الشاعر السومرى قبل اكثر من ٢٠٠٠ عام حين قال : « بالنسبة للاموري السلاح هو رفيقه فلا يعرف الخضوع » اما بالنسبة للديانه الامورية فلا تختلف عن ديانة عرب الصحراء في سوريا وجزيرة العرب من حيث تعدد الالهة وعبادة مظاهر الطبيعة ، والى جانب اله القبيلة امورو وهو اله الحرب ، هناك عدد من الالهة جاءتنا اسماءها مع الالهة الكنعانية وكان اهمها حدد او هدد وهو اله المطر والصواعق والعواصف ويقرن عادة مع الثور والصاعقة ثم اصبح بعد ذلك البعل الاعظم (هبل) ، هذا إلى جانب اله رئيسي آخر هو رشف وربما كان يمثل النار . هذا بالاضافة إلى الاله داكان باعتباره

اله الخصب .. وكان للاله امورو شريكة تسمى عاشرة (عشتار) وتتصف بنفس صفات عشتار البابلية (الهة الحب والحرب) وكذلك توجد طقوس دينية بارزة عند الاموريين هي العمود المقدس وكان يمثل على ما يظهر اله القبيلة وتقام هذه الانصاب في اماكن مطهرة كالكهوف مع مذبح من الحجر تقدم عليه القرابين .

٢ ـ الكنعانيون :

الكنعانيون عرب استقروا في السواحل من بلاد الشام ونراهم منذ زمن قديم في الساحل الجنوبي منه يتقدمون نحو الشمال منذ اواخر الالف الثالث قبل الميلاد وكأبعد حد يوجدون في منطقة اوغاريت (رأس شمرة).

ان الكنعانيين والاموريين قبيلة واحدة استقرت في بلاد الشام جنباً الى جنب الا ان الاختلاف الموجود يرجع بالدرجة الاولى في استيطان كل منهما في قسم خاص من بلاد الشام حيث تم التأثر بالحضارات التي سبقتهم في المنطقة العربية فالاموريون تأثروا بالحضارة العراقية القديمة (حضارة بلاد وادي الرافدين) اما الكنعانيون فتأثروا وأثروا في الحضارة المصرية القديمة (حضارة بلاد وادي النيل) وهذا مالمسناه من خلال دراسة التاريخ بحيث نرى ان منطقة جبيل قد لعبت الدور الكبير في نقل التجارة والافكار الى بلاد وادي النيل منذ العهود القديمة .

ان اسم الكنعانيين مأخوذ من الكلمة العربية القديمة ذات الجذر (كنع) والتي تعني الارض الواطئة بالاشارة الى موطنهم اي الساحل وكان اسم بلاد كنعان يطلق في اول الامر على الساحل والقسم الغربي من فلسطين ولكنه استعمل بعد ذلك ليشمل قسماً كبيراً من سوريا وكل فلسطين (حتى التوراة تطلق على جميع سكان فلسطين اسم الكنعانيين) وهذا يدحض افتراءاتهم في الحق في فلسطين . وهناك اشارات عدة في مواضع كثيرة من بلاد الشام

(١) مورتكات ، تاريخ الشرق الادنى ، ص ٢٦٨
(٢) طه باقر ، المقدمة، ص ٢٣٩